مكتبة السلام 2023

ميس الريم

عبد القادر ثامر

ميس الريم

رواية

عبد القادر تامر

رواية ميس الريم

جميع الحقوق محفوظة ©

®ABDEL KADER TAMER

الفقر أبداً لم يكن عيباً يعيب صاحبه!...

هذه الرواية القصيرة الخارقة للطبيعة بعض الشيء، فيها حكمة وعبرة من فتاة فقيرة ولكن الفقر لا يعني بأن الفقراء لا كرامة لهم أو ليسوا ببشر! بالعكس تماماً، قراءة ممتعة...

تعيش ميس الريم مع والديها في نهاية تلك المدينة التي كانوا يقولون عنها "مدينة السلام" ، سميت بهذا الإسم، من كثرة السلام الذي كان فيها... السلام كان منتشر بكل مكان مثل انتشار الهواء في السماء... ليس هناك خطف ولا سرقة ولا إغتصاب ولا غلاء في الأسعار، وصلة الرحم كانت ضمن القوانين الدستورية، التي مخالفتها جريمة يحاسب عليها القانون، حتى لو كان المخطئ الرئيس ذاته...

لم يكن يوم عادي كباقي الأيام... كان لون السماء أزرق غامقٍ والشمس كانت في السماء موجودة ولكن، كان الجو باردٌ جداً ولم يكن يوجد غيوم نهائياً... و كانت آثار الصقيع على الطرقات ورغم هذا كان الناس في الخارج بكل مكان... هذا الذي لديه حاجةٌ وهذا الذي يشتري طعام لعائلته وهذا ملابس والأشياء اليومية... يكفي بأنهم يداً واحدة...

ميس الريم كعادتها ،تحب النظافة من صغر سنها، فالمرء يكبر على ما تربى عليه... تنظف غرفتها وتجهز نفسها للخروج برحلة مع عائلتها، رحلة بحرية لأول مرة في حياتها... بالطبع كانت بقمة الحماس، وهذا شيئ طبيعي... وبينما كانت تلقي نظرة من النافذة المطلة إلى الطريق العام، لفت انتباهها طفل متشرد فقير، جالس في زاوية الطريق ينتظر رزقته... ملابسه مهترية تماماً والجو بارد حينها... حن قلبها عليه وقررت الخروج إليه بمعطف وبالقليل من الطعام لكي يسد به جوعه والقليل من المال حتى يقضي حوائجه بعد أن ينتهي الطعام... ليست صغيرة حتى تأخذ إذن من ابويها، أخذت من حر مالها، الذي كانت تخبئه للأيام الصعبة... وهذا الطفل كان له نصيب منهم... أتت بهذه الأشياء وذهبت نحوه، فرح كثيراً لرؤيتها مع العلم أنهم لا يعرفون بعضهم أبداً...
أخبرها بقلب صادق...
ـ سبحان الذي سخرك لي...
ـ كان يخبرني والدي رحمه اللهٍ "كن مع الله ولا تبالي"
ردت عليه بحسن الكلام قائلةً...
ـ ما خاب ظن والدك أبداً...
ـ عندما رأيتك من نافذتي، حسست بشيئٍ ما دفعني إليك...
ـ الله لا ينسى من كان معه ودعاه، سبحانه...

بدأت عيناها تدمع دون أن تشعر، هذا الذي يسمى الشعور بالآخرين وليس الكلام فقط... كم هناك من أشخاص كهذا الطفل الذي لا مأوى يأويه ولا طعام لكي يأكله ولا شراب يشربه ولا ملبس يلبسه في البرد الصاقع... كان بإمكانه أن يسرق ولكنه يخاف الله الذي خلقه، لديه إيمان قوي بأنه سيرزقه من حيث لا يحتسب... هذا الذي يسمى الفطرة الحسنة...

سألته والدموع تنهمر على وجهها وعلى لباس النوم الصوفي...

ـ وأين هي والدتك!؟ ولا يوجد لديك أقارب أبداً!؟

ـ أعتذر عن تدخلي بما لا يعنيني ولكن أردت معرفة هذا لكي أعرف كيف يمكنني مساعدتك!...

رفع راسه وابتسم تلك الابتسامة العفوية المليئة بالأمل والسعادة... و رد عليها بكل لطف قائلاً...

ـ خلقت فقيراً في عائلة مكونة من طفلين وأبين، الطفلين هما أنا وأخي الذي فقدت أثره نهائياً... وأما عن أمي وأبي...

سكت قليلاً ونزلت دمعته المليئة بالألم... ثم قال...

ـ بينما كانوا يبحثون عن أخي الضائع في المدينة فجأة حدث حادث مفاجئ وهذا أدى إلى فقدناهم الحياة... ومنذ ذلك الحين وأنا أدور من مكان لآخر باحثاً عن أخي وعن رزقي...

اقتربت عليه وبدأت تهدئه ومسحت دموعها وبدأت تحاول أن تخفف عنه...

ـ مهما حصل يجب أن تبقى قوياً من الداخل والخارج، الحياة هذه لا ترحم، وبالأخص بعض البشر...

همهم الوحيد الحصول على المال وجمعه وغير شيئ آخر بالنسبة لهم غير مهم... التكبر والحسد والحقد يسري في عروقهم، نسوا سبب وجودهم في هذا الدنيا ونسو الآخرة... والديك أصبحوا في جنات النعيم خالدين فيها يعيشون بسلام وأفضل مننا بكثير، صدقني... يجب عليك أن تفرح لهم وليس العكس... هذا هو قانون الحياة... وأي شيئ تريده أنا هنا وسأكون عند حسن ظنك... هذا منزلي هنا... تأثر المشرد من كلامها وخلق بداخله قوة وثقة والسعادة عادت إليه من جديد بعد عدة سنين...

ـ بعد كل الذي أعطيتني إياه تسألينني عن الذي أريده!؟... يكفي بأنك وقفتي معي وشعرتي بي هذا بالنسبة لي أغلى من الدنيا وما فيها... قلة هم الذين مثلك... حفظك الباري... كلمة شكراً لا تكفي للذي فعلتيه لي... ميس الريم شعرت بسعادة تغمرها من الداخل بسبب الذي قاله، هذه المرة الأولى يقول أحدهم لها مثل هذه الكلمات... أخذت وعداً على نفسها بأن تعثر أخيه وعلى أن تساعد الفقراء ما استطاعت... ذهبت إلى المنزل وجلبت من المطبخ القليل من الخبز والجبن واللحم والشراب، لكي يستعيد قوته وبعدها ذهبت إلى العلية وجلبت له معطف لكي يرتديه، الجو بارداً كما تعلمون، لا أحد يتحمل هذا البرد... فرح كثيراً من كل قلبه من الذي قد قدمته له... كانت المرة الأولى الذي يتعاطف معه أحد بعد والديه... المال ليس كل شيئ، لا يشتري السعادة دوماً مهما حصل، الكلام الجميل والمعاملة الحسنة هي التي تشتريها...المهم...

ودعته كما تودع والديها قبل أن تذهب إلى النوم...
لم يقبل عزيمتها له للنوم في المنزل... أخبرها بقلبٍ يعم بالسلام...
ـ أشكرك حقاً من كل قلبي على كل الذي تفعلينه معي...
ـ هذه المرة الأولى الذي يتعاطف معي أحد بعد أمي وأبي...
لا يوجد كلام يصف الشعور الذي بداخلي...
ـ هل تمانعين لو ناديتك من اليوم وصاعداً (أختي)؟
ـ لأنك أدخلتي بداخلي هذا الشعور، لم أحظى بأخت طوال حياتي... على كل حال... سنبقى نرى بعضنا أليس كذلك؟
ردت عليه والابتسامة تغمرها...
ـ بالطبع يا أخي العزيز... هيا تعال! إنني أدعوك إلى الدخولٍ على منزلي والنوم في إحدى الغرف!، ماذا قلت!؟...رد قائلاً بكل لطف وأدب كعادته...
ـ يسرني هذا ولكن تعودت النوم في المنزل الذي تركه لنا والدنا... أعتذر حقاً على رفضي عزيمتك هذا وأقدر هذا حقاً... دمتِ في رعايةٍ الله وحفظه...
أجابته قائلةً مبتسمة ومحاولةً عدم الإصرار على شيئ هو ليس متعود عليه
ـ لن أمنع عنك شيئ أنتَ قد تربيت عليه وتحبه...
ـ إفعل ما شئتٍ يا صاح...أتمنى لك ليلة سعيدة... وداعاً...
رد عليها مستغرباً، لأنها لم تسأله عن اسمه ولا عن عمره ولا عن دينه ولا عن بلده ولا جنسيته ولا شيء... كانت مختلفة عن باقي الفتيات اللواتي يسألن عن كل هذه الأشياء وعلى أن كان يملك

المال أو من أن كان يملك منزل وسيارة فاخرة... هذه الأشياء الخارجية غير مهمة والمهم هو الأخلاق وعلاقة العبد بربه ووالديه وغير هذا فلا يهم... على هذا رباه أباه وأمه ...المال ليس كل شيئ... ذهب عمار إلى ذلك المنزل الذي لا فرق بينه وبين الكوخ المهجور منذ سنين كثيرة، الذي يجعل المكان صالح للعيش، ليس المكان ولا الأثاث بل تجمع العائلة معاً... والإحترام المتبادل بينهم... ليس المال الذي يجعل من الإنسان إنساناً بل الإنسان الذي يجعله... الذي يجعل الإنسان إنساناً هي معاملته مع الآخرين... المعاملة تعكس طبع الشخص... هناك من يكتم ألمه ويظهر عكس الذي يشعر به وهذا الشخص يحب البقاء لوحده، يخاف أن يخبر أحد بالذي يحصل معه ولا يسمعه... يتجاهله... هناك أشخاص الجلوس معهم فقط تجعلك تشعر بالأمان وبالراحة ويأتيك شعور بالحديث معهم عن كل شيئ... مثل ميس الريم... قلبها طيب وتحب مساعدة الآخرين دون مقابل... لأنها تضع نفسها دائماً بنفس الموقف وهذا الذي ندر وجوده... الحياة قصيرة جداً، هناك من يعمل خير بالسر، دون أن تعلم يده الأخرى وهناك من يعمل خير من أجل الشهرة... كلنا فقراء لله... دخل إلى المنزل وتمدد على سريره وبدأ يتذكر أخاه محمد ووالديه الذين دائماً كانوا يوصون بأن يبقوا معا ولا يفترقوا مهم حصل وان يحبون بعضهم ولا ينبت بداخلهم الكره... لأن الأخ لن يتكرر أبداً... مهما كانت معاملة الأخ مع أخيه يبقى أخ... مستحيل الأخ أن يقتل أخيه... ولكن في عالمنا أصبح شيء عادي

للأسف... نزلت دموعه من كثرة الدعاء لأخيه ولوالديه... لم ينساهم أبداً... كم أنت عظيم يا عمار وكم أنت فريد... لو وجد هذا الحب بيننا لما وصلنا إلى ما نحن فيه الآن... وما زال يدعي لميس حتى وهو نائم على ما قد فعلته معه... ربما يكون لبعض الناس شيء قليل ولكن هناك أشخاص يتمنون هذا يومياً... وبالناحية الثانية ميس الريم تفكر بطريقة تستطيع من خلالها مساعدة عمار وجمعه مع أخيه... هذا طبعها ولا يمكن أن تتغير مهما حصل... رغم سنها إلا أن تفكيرها يكبرها بكثير...همها الوحيد النجاح ومساعدة الناس على النجاح أيضاً... في صغرها كتبت جملتين على ورقة وعلقتها على الحائط، كان مكتوب عليها " لا تقل عن شيء مستحيل وأنت لم تحاول بعد... مهما كان الحلم مستحيل سيتحقق فقط عندما تكون مؤمن بالله و بنفسك وبقدرتك..." _ لقد وجدتها... نعم... بهذه الخطة سيمكنني معرفة أخيه محمد... لأن عمار قال لي بأن الإختلاف الوحيد الذي يفرقهم عن بعضهم مجرد شامة على الوجه... وأهم شيء لا ننسى معاملته مع الناس والتكبر على الجميع وحبه بنفسه...وأخبرني بأنهم في صغرهم كانوا يلعبون في ملعب كرة قدم في المدينة يسمى ملعب مركز المدينة للمميزين... لأنهم كانوا ماهرين بلعب الكرة وحصلو على جوائز عدة... كان عمار يصلح مشاكل أخيه ويتحدث عنه بشكل جميل وأخيه يتحدث عنه عكس ذلك... ولكن رغم هذا كانوا في النادي كالفريق الواحد... مهما كان الأخ قاسي يبقى هناك محبة لا تخرج ولكن نشعر بها دون أن

تخرج منناً... ارتديت ملابس الفقير نفسه لا يرتديها... حتى تتم الخطة تماماً مثلما خططت لها...
قالت في نفسها
ـ لا يهم كم سأنتظر... المهم هو نجاحها...
ـ لم أرى بحياتي كلها حب مثل حب هذا الأخ لأخيه وعائلته...

بعد إنتظار طال ساعات وأخيراً مر ذلك الشخص لأول مرة من أمامها وبدأ يذلها ويقول عليها أشياء لا تقال... فقط لأنها فقيرة... الفقر ليس لمن لا يملك المال الفقر بالعقل...لم ترد عليه... ولكن من داخلها كانت بقمة الفرح لأنها عثرت عليه... ذهبت خلفه دون أن يشعر... حتى عرفت المكان الذي يقيم فيه...تفعل كل هذا وعمار لا علم له بشيئ، أرادت أن تصنعها له مفاجأة... تدخل الفرحة إلى قلبه من جديد...
ذهبت إلى منزلها وبدأت تتمنى أن يجتمعون معا من جديد ويعود كل شيء كما كان... بينما كانت تدعي، عمار كان يدعي أيضاً...
ـ يا إلهي اجمع بين هذان الإخوة... وكن معهم لأنهم بحاجتك، وأصلح ما بينهم... وأن يعود كل شيء كما كان... آمين...
أخيه التوأم ذهب إلى سريره ووضع رأسه لكي ينام ولكن لم يستطع... بدأ ضميره يؤلمه على الذي فعله منذ قليل مع ميس الريم... وعلى شتمها بهذه الطريقة...بعد لحظات ظهر أمامه بوابة غريبة... يخرج منها ضوء كضوء الشمس... نزل من سريره ودخل إلى هناك دون أن يفكر حتى... لا يعلم بأنه ارتكب أكبر

خطأ بحياته عندما قرر الدخول إلى هناك... تلك البوابة ظهرت من اللاشيء... بعد ساعة استيقظ محمد ولكن ليس بسريره... بمكان غريب بإحدى الحقول القديمة...
عند استيقاظه جاء على ذهنه العديد من الأسئلة...
_ كيف؟ ماذا حصل؟ _ ولماذا أنا هنا؟... _ أين هذا المكان؟
بقى هكذا عدة دقائق من أثر الصدمة... تحت ضوء الشمس الساطعة... قدم رجل نحوه وكان يحمل أداة كانوا يعذبون بها الذي لا يعمل...وهم يعتقدون بأنه واحد منهم... ولهذا بدأو يعذبونه حتى بدأ يشتمهم ويتنمر عليهم وزادوا عليه العذاب أكثر... عرض عليهم المال بشرط تركه ولكن الذي صدر منهم صدمه...
_ ماذا لو اعطيتكم كل ما أملك من مال،
_ بشرط أن تتركوني وشأني؟!...
قاموا بقص المال نصفين ورميهم في القمامة...
بدأ يشعر بالخوف... وتأكد بأنه بزمان غير زمانه... في الماضي... من اللباس وطريقة الكلام والمكان... قيدوه جيداً واخذوه إلى المدير ولكن هجم عليهم بكل قوته واستطاع الهروب منهم وذهب يبحث عن مكان يختبئ به... ذهب راكضاً في تلك الحقول حتى وصل إلى مكان بعيد عن كل شيء، كوخ صغير، بدأ بطرق الباب حتى خرجت فتاة جميلة وكأنها ميس الريم... ادخلته وقامت بإطعامه وإخفائه عن عيون هؤلاء الأشخاص الذين يريدون القبض عليه...دون أن تعرف من يكون... لكنها تحب

مساعدة الجميع...وكأنها هي... طريقة تعاملها، طريقة كلامها، كل شيء مثلها، كأنها نسخة طبق الأصل... عندما دخل صدم وتفاجأ عندما رآها... بدأ يعتذر لها ويطلب منها السماح على الذي قد صدر منه اليوم من كلام وشتائم... ولكن لم يكن لديها أدنى فكرة على الذي كان يقوله... ظنت بأنه فاقد للذاكرة...

ـ هذه المرة الأولى الذي يحدث معي هذا، يأنبني ضميري على شخص تنمرت عليه وشتمته...

ـ لا يمكنني أن أنام ولا للحظة واحدة...

ـ أرجوكِ سامحيني!...

ردت علَيه متفاجئة، غير فاهمة الذي يقوله... لأن هذه المرة الأولى الذي تجتمع معه...

ـ أعتذر يا سيدي، لا أفهم الذي تقوله!...

ـ أعتقد بأنك تحتاج إلى الراحة قليلاً...

ـ هنا أنت في أمان اطمئن يا سيدي...

ـ ابقى هنا حتى أعود ولا تذهب إلى أي مكان...

فعل كل ما طلبته هي منه...ولكن كعادته يحب معرفة كل شيء... بعدما ذهبت الفتاة... ذهب خلفها بالسر دون أن تشعر... كانت ساعة متأخرة في منتصف الليل... رآها تدور على منازل فقراء القرية وتعطيهم ما تيسر من الطعام... كانت تصنعه بنفسها... بدأ يعجب بها وبطيبة قلبها... بدأ قلبه يحن شيئاً فشيئاً... قال بينه وبين نفسه بصوت واطي...

ـ صدقت يا والدي عندما قلت لي "لا تحكم على أحد من ظاهره حتى تعاشره وتعرفه جيداً...
ولا تصدق كل ما يقال...هناك أشخاص من الخارج يبدون جيدون ومن الداخل شياطين بجسد انسان"
كان هناك دورية حراسة ليلية تفتقد القرية، سمعه أحد عناصرها بينما كان يتحدث مع نفسه... اقترب عليه وتعرف عليه مباشرة... لأنه كان نفس العنصر الذي رآه أول دخوله إلى هنا ... طلب منه القدوم معه بطريقة لو تحدثت فيها مع الحيوانات لهربت منك...
ـ وأخيراً عثرنا عليك...
ـ هيا تعال معنا...
ـ ألا تخاف أن تموت!؟...
ـ لا تعلم بأن الهروب من العمل وعدم طاعة الرئيس عقابه الضرب حتى الموت؟...
غاب عن وعيه محمد بعد سماعه هذا... ذهبوا به إلى المركز الصحي الخاص بالمساجين... بعد ساعة استعاد وعيه وعندما فتح عينيه رأى نفس الفتاة التي ساعدته فوق رأسه... تطمئن عليه... عرف بأنها الممرضة والطبيبة لهذه القرية.....
ـ أدعى ريم، أنا ممرضة هنا وطبيبة...ورثت هذا عن أبي وأمي...
ـ أرجوك لا تخبرهم بأنك كنت عندي في المنزل أو أني رأيتك من قبل... لأنهم إذا علمو بهدا الأمر سيوقفوني عن العمل

وسيدخلوني السجن... ومن أجل أن تبقى على قيد الحياة، افعل كل ما يأمرونه... مهما كان...
ـ إن احتجت إلى أي مساعدة أنا هنا دائماً...
رد عليها بصوت واطي، بعيداً عن الحراس
ـ أعدك بأنني لن أخبر أحد بهذا...
نادو عليه وذهب إليهم وطلبوا منه أن يحمل أشياء ثقيلة الوزن مع عدد كبير من الفقراء لمسافة بعيدة... دون استراحة... عرض عليهم المال بشرط إعفاءه من هذا ولكن بسبب هذه الحركة قاموا بزيادة الحمولة... لم يكن لديه حل آخر... ذهب معهم وهو يندب حظه ويقول
ـ يا ليتني لم اشتم احد ولم أتمرد على أحد... بالأول وبالنهاية كلنا بشر وبداخلنا روح وخلقنا رب واحد...

تعب جداً لأول مرة بحياته كلها... لأنه ليس متعود على هذا العمل... بعد مدة طالت أكثر من عشرين دقيقة وصلٍ إلى المكان المطلوب... الجميع وضع الحمولة وجلسوا يستريحوا قليلاً ومن ثم يعودوا إلى منازلهم...وهو عائد إلى منزل الفتاة تذكر بأنه وعدها بأنه لن يخبر أحد بأنه تعرف عليها من قبل او رآها من قبل... لهذا قرر العودة إلى أول مكان رآه... ذهب إلى هناك وتغطى بالعشب ونام... وبعدما استيقظ، وجد نفسه على سريره مستلقي... وأن كل ما رآه كان مجرد حلم... ولكن تعلم منه الكثير ولم يعد ذلك الشخص المتنمر المتكبر...

قال والابتسامة على تملئ وجهه...
ـ الحمد لله على هذا الحلم... قد علمني الكثير، سأذهب حالا إلى تلك الفتاة وأعتذر منها لعلها تسامحني... لم يكذب خبر... مباشرة لبس نعاله وخرج مسرعاً نحو المكان الذي رأى ميس الريم فيه... ولكن لم يجدها هناك... فقرر أن ينتظرها هناك حتى تأتي... انتظر عدة ساعات حتى أنت ميس الريم وأخيراً ولكن بلبسها العادي... من شدة خجله بسبب الذي فعله معها لم يعرف كيف يفتح معها الموضع...
ـ أعتذر من كل قلبي على كل كلمة خرجت مني... أتمنى منك أن تسامحيني... لن أكرر هذا مع أحد أعدك... تكاد لا تصدق الذي يحدث أمامها...بنفس اللحظة جاء أخيه عمار وكانت هذه اللحظة صادمة للكل بنفس الوقت... أخوة لم يرو بعضهم البعض منذ سنين يجتمعون من جديد بطريقة أقرب إلى الخيال... من كان يصدق بأن شخص متكبر ومتنمر يتغير في يوم وليلة من شخص إلى آخر حنون قلبه طيب يحب المساعدة... بالحقيقة هذا الشخص موجود بداخل كل إنسان ولكن سبب بقائه هو التكبر... عندما يذهب التكبر يخرج ذلك الشخص الذي بداخلك...

"صعب جداً ولكن ليس مستحيلاً "